

﴿٢٨٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَكْلَفُ عِبَادَهُ إِلَّا مَا يَسْتَطِيعُونَ تَأْدِيتَهُ وَالْقِيَامَ بِهِ، وَلِذَلِكَ كَانَ كُلُّ مَكْلُوفٍ مُجْزِئًا بِعَمَلِهِ: إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَاضْرَعُوا إِلَى اللَّهِ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - دَاعِينَ: رَبَّنَا لَا تَعَاقِبْنَا إِنْ وَقَعْنَا فِي النِّسْيَانِ لَمَّا كَلَّفْتَنَا إِيَّاهُ، أَوْ تَعَرَّضْنَا لِأَسْبَابِ يَقَعِ عِنْدَهَا الْخَطَأُ، رَبَّنَا وَلَا تُشَدِّدْ عَلَيْنَا فِي التَّشْرِيعِ كَمَا شَدَّدْتَ عَلَى الْيَهُودِ بِسَبَبِ تَعَتُّيهِمْ وَظُلْمِهِمْ، وَلَا تَكْلِفْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ مِنَ التَّكَالِيفِ، وَاعْفُ عَنَّا بِكَرَمِكَ، وَاعْفِرْ لَنَا بِفَضْلِكَ، وَارْحَمْنَا بِرَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ. إِنَّكَ مُوَلَانَا، فَانصُرْنَا يَا رَبِّ - مِنْ أَجْلِ إِعْلَاءِ كَلِمَتِكَ وَنَشْرِ دِينِكَ - عَلَى الْقَوْمِ الْجَاهِلِينَ.

لله ملك السموات والأرض وإحاطة علمه بكل شيء ومحاسبة العباد على أفعالهم ونواياهم

﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤).

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآية (٢٨٤): لما نزل قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤). اشتد الأمر على الصحابة أيحاسبون على الأمور التي يبدونها والتي يخفونها أيضاً؟ ولكن النبي ﷺ علمهم الأدب مع الله وعلمهم كيف يتعاملون مع الأمر فقال لهم: ﴿قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(١). خفف الله تعالى عنهم فنزلت تكملة الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٢). وبين الله تعالى أنه سيحاسبهم على هذه الخواطر إذا عملوا بها، أو إذا فكروا بها بطريق عزم أو هم. أمّا إذا جاءت الخواطر وصرفوها فالله سبحانه وتعالى لا يحاسبهم عليها.

المناسبة: هذه الآية متممة لآخر كل من الآيتين السابقتين وهما: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ودليل على إحاطة علم الله بالأشياء؛ لأنّ من ملك شيئاً وخلقه، فلا بدّ من أن يعلمه، كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٣)، وكذلك من ملك شيئاً فله حسابه على أفعاله وما يخفيه صدره، ومنها كتمان الشهادة، وصاحب السلطة المطلقة في شيء وهو الحساب، له الإرادة المطلقة في العفو عمن شاء ممّن أخطأ، وعقاب من شاء، وذلك كلّ مقتدر بالقدرة المطلقة على كلّ شيء.

وللآية أمثال كثيرة في القرآن الكريم نحو: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤). و﴿وَإِنْ تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(٥).

المعنى العام

يخبر تعالى أنّ له ملك السموات والأرض، وما فيهنّ وما بينهما، وأنّه المطلع على ما فيهنّ لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإنّ دقت وخفيت، وأخبر أنّه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٦).

وقال: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(٧)، والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه الآية بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة ﷺ وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٩.

(٣) سورة المملك، الآية: ١٤.

(٧) سورة طه، الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٢٩.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٥) سورة طه، الآية: ٧.

وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم.

- روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها، فقال رسول الله ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها^(١) ﴿أَمَنْ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٢)، فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾^(٣) إلى آخره، ورواه^(٤) مسلم منفرداً به عن أبي هريرة فذكر مثله، ولفظه: فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال^(٥) نعم: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: نعم^(٦)

- وروى أحمد عن مجاهد قال: دخلت على ابن عباس فقلت: يا أبا عباس، كنت عند ابن عمر فقرأ هذه الآية فبكي قال: آية آية؟ قلت: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال ابن عباس: إن هذه الآية حين أنزلت غمّت أصحاب رسول الله ﷺ غمّاً شديداً وغازتهم غيظاً شديداً، وقالوا: يا رسول الله هلكننا، إنا كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «(قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)» فقالوا: سمعنا وأطعنا، قال: فنسختها هذه الآية ﴿أَمَنْ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فَتَجَوَّزَ لَهُمْ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَأَخَذُوا بِالْأَعْمَالِ.

- وروى ابن جرير عن ابن شهاب عن سعيد بن مرجانة سمعه يحدث: أنه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فقال: والله لئن واخذنا الله بهذا لنهلكن، ثم بكى ابن عمر حتى سمع نسيجه، قال ابن مرجانة: فقامت حتى أتيت ابن عباس، فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها، فقال ابن عباس: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، لعمرى لقد وجد المسامون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر، فأنزل الله بعدها ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا﴾ إلى آخر السورة، قال ابن عباس: فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر إلى أن قضى الله تعالى أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل. وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «(إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا)^(٧)، مَا لَمْ تَكَلِّمْ أَوْ تَعْمَلْ»^(٨).

(١) «أثرها» بفتح الهمزة والثاء، وبكسر الهمزة وسكون الثاء، لغتان.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥. (٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٤) قوله: «ورواه مسلم منفرداً به عن أبي هريرة»، قد يوهم أن رواية أحمد عنه تنتهي هنا، وليس كذلك، بل رواية أحمد هي بنحو رواية مسلم إلا أن فيها «قال:

نعم»، ثلاث مرّات، أي: ليس بعد قوله: ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قوله: «قال: نعم». أما رواية أحمد عن ابن عباس فهي من دون هذه الزيادة بكاملها كما سيأتي.

(٥) أي: قال الله تعالى بعد كل دعاء من هذه الأدعية: «نعم» أي: «قد فعلت» كما في رواية أخرى، أي: استجبت دعاءكم هذا، وستأتي إشارة إلى هاتين الروايتين آخر تفسير السورة.

(٦) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٢٥٠، كتاب: الإيمان، باب: بيان قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾.

(٧) «أنفسها» ضبطها بعضهم بالنصب وبعضهم بالرفع، والنصب أظهر وأشهر كما قال النووي رحمه الله.

(٨) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٥٢٦٩، كتاب: الطلاق، باب: الطلاق في الإغلاق والكره.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: إِذَا هُمْ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمَلَهَا فَكْتُبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هُمْ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَكْتُبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمَلَهَا فَكْتُبُوهَا عَشْرًا»^(١).

وروى مسلم أيضًا عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: «فَمَنْ هُمْ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هُمْ بِهَا فَعَمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً، وَإِنْ هُمْ بِهَا فَعَمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(٢).

وعن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قالوا: نعم قال: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» رواه مسلم، وروى مسلم أيضًا عن عبد الله بن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة قال: «تِلْكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^(٣).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ» فإنها لم تُنسخ، لكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول: إني أخبركم بما أخفيت في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله: «يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ» يقول: يخبركم، وأما أهل الشك والريب، فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب، وهو قوله: «فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ» وهو قوله: «وَلَكِنْ يَأْخُذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ»^(٤) أي: من الشك والنفاق. وقد روى العوفي والضحاك عن ابن عباس قريبًا من هذا، وروى ابن جرير عن مجاهد والضحاك نحوه، وعن الحسن البصري أنه قال: هي محكمة لم تُنسخ، واختار ابن جرير ذلك، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب، بالحديث الذي رواه عند هذه الآية عن قتادة عن صفوان بن محرز قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَذْنُو الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ تَعَالَى، حَتَّى يَصْغَ عَلَيْهِ كَنَفُهُ، فَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُ كَذَا؟ فَيَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ، مَرَّتَيْنِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْلُغَ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. قَالَ: فَيُعْطَى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ أَوْ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ»^(٥)». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما من طرق متعددة.

يقول الحق ﷻ: «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» أي: خلقًا وملكًا وعبيدًا، يتصرف فيهم كيف شاء يرحم من يشاء بفضله، ويعذب من يشاء بعدله، «وَإِنْ تَبَدُّوا» أي: تظهروا ما في أنفسكم من السوء والعزم عليه، أو تخفوه في قلوبكم، يحاسبكم به الله يوم القيامة فيغفر لمن يشاء مغفرته، ويعذب من يشاء تعذيبه، والله على كل شيء قدير لا يعجزه عذاب أحد ولا مغفرته. وعبر الحق تعالى بالمحاسبة دون المؤاخذه، فلم يقل: يؤاخذكم به الله لأن المحاسبة أعم، فتصدق بتقرير الذنوب دون المؤاخذه بها، لقوله ﷺ: «يَذْنُو الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَصْغَ كَنَفُهُ عَلَيْهِ، فَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ كَذَا؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَعْرِفُ، فَيُوقَفُ عَلَى ذَنْبِهِ ذَنْبًا ذَنْبًا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا الَّذِي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ». فله الفضل والمنة، وله الحمد والشكر.

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٢٨، كتاب: الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كتبت.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، عن ابن عباس، حديث رقم: ٦٤٩١، كتاب: الرقاق، باب: من هم بحسنة أو بسيئة.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٣٢، كتاب: الإيمان، باب: بيان الوسوسة في الإيمان.

(٤) سورة هود، الآية: ١٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.

(٦) رواه البخاري في صحيحه، عن قتادة عن صفوان بن محرز، حديث رقم: ٤٦٨٥، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: «وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ».

لطائف الإشارات للسلوك والتزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآية:

١. محاسبة العبد بما يخفي في نفسه من الشك والشرك والتفاق وغير ذلك من بغض أولياء الله وحب أعدائه، ومؤاخذته بذلك، والعفو عن الهمة بالخطيئة والذنب دون الشك والشرك والحب والبغض من المؤمن الصادق الإيمان للحديث الصحيح الذي أخرجه الستة: «(إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ أَوْ تَعْمَلْ)»^(١).
٢. «وَأِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ»: من المعاني والدعاوى، ويقال من القصود والرغائب، وفنون الحوائج والمطالب. ويقال ما "تبدية": العبادة، "وما تخفيه" الإرادة أي النية. ويقال ما "تخفيه": الخطرات و"ما تبدية": "العبارات". ويقال ما "تخفيه": السككات والحركات.

- ويقال الإشارة فيه إلى استدامة المراقبة واستصحاب المحاسبة، فلا تغفل خطرة ولا تحمل وقتك نفسك.
٣. «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٨٤». يبين سبحانه أنَّ محاسبته لعباده سوف تأتي على جميع الأعمال: العلانية والسريّة، والجسميّة والقلبيّة، والبادية الظاهرة والنفسيّة الخفيّة، فهو الذي يعلم السرّ وأخفى، ويعلم ما يسترّون وما يعلنون، وما يبدون وما يخفون من خفايا نفوسهم وخبايا قلوبهم، وسوف يحاسبهم على جميع ذلك، فليخافوا وليخشوا الحساب عند ربّ الأرباب. ثم بعد الحساب: يغفر لمن يشاء، وهم الذين فيهم أهليّة لأن يتفضّل عليهم بالمغفرة، ويعذب من يشاء وهم الذين ليسوا أهلاً للتفضيل بالغفران، وذلك عائد لعلمه وحكمته، فإنّه هو العليم الحكيم وهو على كلّ شيء قدير، ومن ذلك قدرته على المغفرة لهذا والتعذيب لهذا، لا يعجزه شيء من ذلك. قال تعالى: «وَلْيَغْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»^(٢).

في الأمر والنهي

- باب في وجوب الانقياد لحكم الله تعالى وما يقوله من دعي إلى ذلك، وأمر بمعروف أو نهي عن منكر
- قال الله تعالى: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»^(٣).
- وقال تعالى: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(٤).

(١) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٥٢٦٩، كتاب: الطلاق، باب: الطلاق في الإغلاق والكره.

(٢) سورة النور، الآية: ٢٢. (٣) سورة النساء، الآية: ٦٥. (٤) سورة النور، الآية: ٥١.

من عرف أنَّ الله تعالى خيرٌ، وأنَّه سبحانه مُطَّلَعٌ على خفاياه، عندها تأدَّب معه في كلِّ شيءٍ في أحكامه وحركاته وسكناته. مثلاً: هناك تاجر امتلك أرضاً واسعة وقرر بناء مسجد عليها، رغم ظاهر النية الطيبة، لكن الحقيقة أنَّه يأتي المزيد من الناس للمنطقة، بسبب وجود المسجد، وبالتالي تزيد قيمة الأرض، هذه الدوافع الداخلية لا يعلمها أحد سوى الله ﷻ. والإخلاص هو سرٌّ لا يطلع عليه شيطانٌ فيفسده، ولا ملكٌ فيكتبه، أمَّا الله تعالى من اسمه الخير يطلع على نواياك. فتأدَّب معه، واعلم أنَّه بك خيرٌ، وبنواياك خير، وبما تفكَّر به خير، ولذلك لما نزل قول الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨) اشتدَّ الأمر على الصحابة أيحاسبون على الأمور التي يبدونها والتي يخفونها أيضاً؟ ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ علمهم الأدب مع الله وعلمهم كيف يتعاملون مع الأمر فقال لهم: ﴿قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (١). فحَفَّفَ الله تعالى عنهم فنزلت تكملة الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَاْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢) وبَيَّنَّ الله تعالى أنَّه سيحاسبهم على هذه الخواطر إذا عملوا بها، أو إذا فكَّروا بها بطريق عزم أو همٍّ. أمَّا إذا جاءت الخواطر وصرفوها فالله سبحانه وتعالى لا يحاسبهم عليها.

الحكمة: لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول.

في السيرة والشَّمائل

صلح الحديبية:

في العام السادس من الهجرة رأى رسول الله ﷺ في منامه أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأنهم يطوفون بالكعبة، فأخبر أصحابه بذلك، ففرحوا فرحاً شديداً، فرؤيا الأنبياء حق، وقد اشتدَّ بهم الحنين إلى تأدية النُسك، ودخول مكة موطنهم الأول ومسقط رأسهم.

وفي شهر ذي القعدة من العام نفسه خرج النَّبيُّ ﷺ في ألف وأربعمائة مسلم، متجهين إلى مكة لقضاء أولِّ عمرة لهم بعد الهجرة، فلما وصل إلى ذي الحليفة أهلٌ مُحَرَّمًا هو ومن معه، وحين وصلوا إلى عسفان (مكان بين مكة والمدينة)، جاءهم بُشْرُ ﷺ بأخبار قريش واستعدادهم لمنع المسلمين من دخول مكة، فاستشار النَّبيُّ ﷺ أصحابه، فأشار أبو بكر رضي الله عنه بالتوجه إلى مكة لأداء العمرة والطواف بالبيت.

وفي موضع يقال له الحديبية قبيل مكة تمت مفاوضات بين النَّبيِّ ﷺ وقريش، أسفرت عن اتفاق عُرفَ في السيرة النبوية بصلح الحديبية، ويقضي هذا الصلح بأن تكون هناك هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات، وأن يرجع المسلمون إلى المدينة هذا العام فلا يقضوا العمرة إلى العام القادم، وأن يرِدَ محمد ﷺ من يأتي إليه من قريش مسلماً دون علم أهله، والأتَرِدَ قريش من يأتيها مرتدًا، وأن من أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد ﷺ من غير قريش دخل فيه. وكان هذا الصلح - رغم شروطه الشديدة على المسلمين - فتحاً عظيماً، ونصراً مبيئاً للمسلمين، وذلك لما ترتب عليه من منافع

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

عظيمة، حيث اعترفت قريش بكيان المسلمين لأول مرة، وتنازلت عن صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية، وقد سمّاها الله تعالى فتحاً مبيناً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١).

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "إنكم تعدّون الفتح فتح مكّة، ونحن نعدّ الفتح صلح الحديبية". وقال الزهري: "فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه".

وقال ابن هشام: "والدليل على قول الزهري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مائة في قول جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ثم خرج عام فتح مكّة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف". (تم نقلها من الآخر حسب طلب الشيخ القاضي وليد الحصري)

قال الشنقيطي: "وليس المراد بالفتح المذكور فتح مكّة وإن قال بذلك جماعة من أهل العلم، وإنا قلنا ذلك لأن أكثر أهل العلم يرون أن المراد بالفتح فتح الحديبية، ولأن ظاهر القرآن يدلّ عليه، لأنّ سورة الفتح نزلت بعد الصلح في طريقه صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة، ولفظ الماضي في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ يدلّ على أن ذلك الفتح قد مضى، فدعوى أنه فتح مكّة ولم يقع إلا بعد ذلك بقرب سنتين خلاف الظاهر".

خرج المسلمون من المدينة وهم أشدّ ما يكونون شوقاً إلى البيت الحرام، ولقد كانوا عازمين على دخول مكّة، مهما كلّفهم ذلك من جهد وثمن، ومن ثمّ حزنوا لرجوعهم إلى المدينة دون تأديتهم للعمرة وطوافهم بالكعبة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبرهم أنّهم سيأتون البيت يطوفون به، فلم يرجعوا ولا يطوفون به؟ كما حزنوا لأنّه نبي الله وهو على الحق، والله وعده نصره وإظهار دينه، فما له يقبل شروط قريش ويستجيب لضغوطهم؟ وصارت مشاعر المسلمين لأجل ذلك حزينة، وكان أعظم المسلمين حزناً عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي حدث بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم حوار ومناقشة.

عن أبي وائل قال: (قام سهل بن حنيف يوم صفين، فقال: أيها الناس، اتهموا أنفسكم لقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين، قال: فأتى عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلنا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى»، قال: ففيم نعطي الدنية في أنفسنا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: «يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يُضَيِّعَني الله»، قال: فانطلق ابن الخطاب ولم يصبر متغيّظاً، فأتى أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على باطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب إنّه رسول الله، ولن يضيّعه الله أبداً. فنزل القرآن على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل إلى عمر فأقرأه إيّاه، فقال: يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: «نعم»، قال: فطابت نفسه ورجع^(٢).

وفي رواية أحمد: "فقال له أبو بكر بمثل ما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وزاد أبو بكر: (يا عمر الزم غرزه - أي: تمسك بأمره - حيث كان، فإني أشهد أنّه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنّه رسول الله، وقال عمر: ما زلتُ أصوم وأتصدّق وأعتق من الذي صنعتُ مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ، حتّى رجوت أن يكون خيراً).

قال ابن حجر: "قال بعض الشراح قوله: "أعمالاً" أي من الذهاب والمجيء، والسؤال والجواب، ولم يكن ذلك شكاً من عمر، بل طلباً لكشف ما خفي عليه، وحثاً على إذلال الكفار، لما عُرف من قوته في نصرته الدين" ثم قال: "وتفسير الأعمال بما ذُكر مردود، بل المراد به الأعمال الصالحة، ليكفر عنه ما مضى من التوقف في الامتثال ابتداءً".

وروى الواقدي من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه: قال عمر رضي الله عنه: "لقد أعتقت بسبب ذلك رقاباً، وضمت دهرًا".

لم يكن عمر رضي الله عنه في مناقشته للنبي صلى الله عليه وسلم ضعيف الإيمان، بل كان يريد ما هو أشق على النفس حين قال: أليس قتلنا في الجنة، وقتلهم في النار؟ قال: ((بلى))، قال: فعيم نعطي الدنية في أنفسنا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم مُدْرِكاً وموقناً أن هذا الصلح سيكون فاتحة خير وبركة على المسلمين بعد ذلك، وإذا كان الأصل في أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم وعادته مع أصحابه الحوار والمناقشة ليبين لهم الحكمة، إلا أنه صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف يربي أصحابه على الاستسلام لأمر الله تعالى، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، دون معرفة الأسباب، أو إدراك الحكمة، فما دام الله تعالى قد أمر، والنبي صلى الله عليه وسلم قد حكم، فلا يسع المسلم إلا الإيمان والتصديق والرضى، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَزَجًا مِّمَّا قُضِيَتْ وَتُسَلِّمُوا﴾ تسليماً ^(١).

وإذا كان عمر رضي الله عنه وبعض الصحابة كرهوا هذا الصلح، ورأوا في شروطه الظلم والإجحاف بالمسلمين، إلا أنهم ندموا على ذلك، وظلّت تلك الحادثة درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم، فكان عمر رضي الله عنه يقول: "يا أيها الناس: اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أردّ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيي اجتهاداً".

وكان سهل بن حنيف رضي الله عنه يقول: "اتهموا رأيكم، رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أردّ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددته".

لقد كان صلح الحديبية مفتاحاً لفتح مكة وإن لم ينتبه المسلمون لهذا في حينه، إذ لما تمّ الصلح والهدنة ووضعت الحرب، وأمن المسلمون واختلطوا بالكفار من غير استنكار، دعوهم إلى الإسلام وأسمعوهم القرآن، وقد أسلم في خلال سنتين - بعد هذا الصلح - مثل من كان في الإسلام قبل ذلك بل أكثر، ومن ثمّ كان صلح الحديبية - مع ما فيه من الدروس والحكم - فتحاً مبيناً. لقد تعلم الصحابة رضي الله عنهم من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم عامة، ومن صلح الحديبية خاصة، وجوب طاعة أمر النبي صلى الله عليه وسلم والتسليم لحكمه، وإن خالف ذلك النفس، ولم يدرك غايته العقل.

والله سبحانه يسمع خطابك لنفسك فاحفظ أنفاسك واحفظ قلبك، والله يسمع خطراتك أيضاً ولذلك نزل قول الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(٢).

قصة حيي من الانصار بعد توزيع غنائم حنين:

عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا، في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحيي من الأنصار في أنفسهم! حتى كثرت منهم القالة فقال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله قومه، فدخل عليه سعد بن عباد، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحيي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحيي من الأنصار منها شيء.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.

قال: «فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي.

قال: «فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ».

قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة.

قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردّهم.

فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله.

ثم قال: «يَا مُعَشَرَ الْأَنْصَارِ: مَا قُلْتُمْ، بَلَّغْتَنِي عَنْكُمْ، وَجَدْتُمَهَا وَجَدْتُمُوهَا عَلَيَّ فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ آتِكُمْ صَلَاةً فَهَذَا كُمْ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ، وَأَعْدَاءَ فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

ثم قال: «أَلَا تُحْيِيُونَنِي يَا مُعَشَرَ الْأَنْصَارِ؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل.

قال ﷺ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَصَدَقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَدَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَخَذُولًا فَتَصَرَّنَاكَ، وَطَرِيدًا فَأَوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَاسْتَيْنَاكَ. أَوْجَدْتُمْ يَا مُعَشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسَائِرُوا. وَوَكَّلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَلَا تَرَوْنَ يَا مُعَشَرَ الْأَنْصَارِ أَنَّ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ مُرَاءً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شُعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شُعْبًا، لَسَلَكَتِ شُعْبَ الْأَنْصَارِ. اللَّهُمَّ ارْزُقِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ»^(١).

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً، وحطاً. ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا.

في السلوك

الإشارة: «وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ» من الخواطر الردية والطوارق الشيطانية، أو تخفوه في قلوبكم، حتى يحول بينكم وبين شهود محبوبكم، «يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ» فيمحو ظلمته من قلبه بإلهام التوبة والمبادرة إلى اليقظة، «وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ» بتركه مع ظلمة تلك الأغيار، وخوضه في بحار تلك الأكدار، فما منع القلوب من مشاهدة الأنوار إلا اشتغالها بظلمة الأغيار، فرغ قلبك من الأغيار تملأ بالمعارف والأسرار، فإن أردت أن تكون عين العين، فاح من قلبك نقطة الغين، وهي نقطة السوى.

الإشارة: واعلم أنّ الخواطر أربعة: ملكي ورباني ونفساني وشيطاني، فالملكي والرباني لا يأمران إلا بالخير، والنفساني والشيطاني لا يأمران إلا بالشر، وقد يأمران بالخير إذا كان فيه دسياسة إلى الشر، والفرق بين النفساني والشيطاني: أنّ الخاطر النفساني ثابت لا يزول بتعوذ ولا غيره، إلا بسابق العناية، بخلاف الشيطاني: فإنه يزول بذكر الله، ويرجع مع الغفلة عن الله. والفرق بين الرحماني والملكي: أنّ الرحماني يأتي بالعلوم والفهوم والمعاني والنوايا والأفكار فيما ينفع الأمة، والملكي يأمرك بخير من طاعة أو ذكر أو خلق حسن. والله تعالى أعلم.

في الإعجاز العلمي

(١) رواه أحمد في مسنده، عن أبي سعيد الخدري، حديث رقم: ١٧٣٠، مسند: المكثرين من الصحابة، مسند: أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، الحديث إسناده حسن.

يا الله، يا علي، يا عظيم، يا حليم، يا عليم... أنت ربّي، وعالمك حسبي، فنعّم الربّ ربّي، ونعّم الحسب حسبي. تنصّر من تشاء وأنت العزيز الرحيم؛ نسألك العظمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات... من الشكوك والظنون، والأوهام السائرة للقلوب عن مطالعة الغيوب، فقد ﴿ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

الآيتان ٢٨٥-٢٨٦

آخر آيتين من سورة البقرة، الإيمان بالرسول والتكليف بالوسع

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

المناسبة: بدأ الله تعالى هذه السورة بالكلام على القرآن والمؤمنين ومقارنتهم بالكافرين، ولا سيما أخبار اليهود، ثم أرشد تعالى إلى كثير من الأحكام كالصيام والحج والطلاق، ومحاجة الضالين، وختم السورة بالكلام عن إيمان الرسول محمد ﷺ والمؤمنين بالكتب السماوية وبالرسل الكرام دون تفريق أو تفضيل في أصل الرسالة والتشريع، وكان مسك الختام إبداء ما تفضل الله به على هذه الأمة من التكليف السمحة السهلة التي لا ضيق ولا حرج فيها، وأن الإيمان وأهله منصورون على الكفر وأعوانه، إذا صحّ وصدقت العزيمة وتوافر الإخلاص والصدق وتنفيذ الأحكام الشرعية.

المعنى العام

ورد في فضل هاتين الآيتين عدد من الأحاديث، منها ما رواه الشيخان وأحمد وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفْتَاهُ»^(١). ومنها الدعاء: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به، فإذا دعوت بذلك «قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ»، وفي الحديث الآخر: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ».

(١) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي مسعود، حديث رقم: ٥٠٠٩، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل سورة البقرة.